وجع..

أمرني أبي ذات يومٍ بالذهاب إلى المشفى العام؛ لزيارة إحدي القريبات، ولكَم أحسست بوطأة هذا الحمل الثقيل الذي ألقاه أبي على كاهلي، فلم يكن يسلبني راحتي ويوجع قلبي سوى مشاهد الدموع والأنين التي كثيرا ما تصاحب المرضى، ولكني أمام فرمانات أبي لا أملك سوى الموافقة والانصياع..

في غد هذا اليوم، وبعد الانتهاء من عملي، عرجت على المشفى العام وصعدت إلى الدور الثاني حيث قسم الاستقبال، فالمريضة التي أبتغي زيارتها أتت إلي المشفى جراء حادث طريق، كنت قد دونت اسمها في ورقة خشية النسيان، أخرجت الورقة الصغيرة من بين يدي وقرأت الاسم على إحدى الممرضات، فلم أكد أنطق الاسم الأول حتى أشارت نحو أحد العنابر وهي تقول:

- السرير المجاور للباب.

طرقت الباب طرقًا خفيفًا.. فلم يُجب أحد، دفعته برفق ففُتح، فوجدت رائحة البنج ومخلفات الأدوية تندفع إلي أنفي وتملأ رئتاي، فتراجعت قليلًا للوراء لأنال قسطًا من الهواء النقي تعينني على الدخول إلي العنبر مجددًا.. كان المكان مظلمًا موحشًا وكأنه أقرب إلى القبور منه إلي العنابر التي من المفترض أنها أُنشئت لراحة المرضى وتَداويهم.. رحت أنظر يمنة ويسرة؛ فلم أجد سوى غرفة ضيقة لا يوجد بها أماكن

للتهوية، سوى نافذة صغيرة لا تكاد تسمح بمرور طفل في شهوره الأولي.. وعلى ضوء الشعاع المنبعث من النافذة الصغيرة؛ استطعت الوصول إلى كابس الضوء، فضغطته.. فوجدت نورًا ضئيلًا يأتي فلم يغير الكثير.. الحجرة بها سريرين، كانت المريضة تنام على أحدهما والآخر لا يوجد عليه لا مرتبة ولا وسادة ولا أي شيئ سوى شبكة من حديد أكلها الصدأ.. بين السريرين ممر ضيق يصل بي إلي حيث النافذة، وضعت أكياس الفاكهة التي بيدي وراء الباب؛ فوجدت الرائحة الكريهة التي انبعثت حين دخولي تزداد، فأمعنت النظر فرأيت أكياس القمامة والمخلفات موضوعة بجوار الباب، فتملكني غيظٌ وضيقٌ، ووجدت زفرة حارة تنطلق من داخلي، ووضعت الجريدة التي بيدي على الشبكة الحديدية الموضوعة على السرير المقابل وجلست عليها، ورحت أنظر إلي تلك المستلقية على سريرها وأنتظر؛ علَّه يأتيني من يرافقها فيعلم بحضوري فأتمم مهمتي وأنصرف.. ولكنني وجدتها في سُبات عميق، وقطرات المحلول المعلق تنساب نقطة نقطة إلي ذراعها الذي تعرى نصفه، كانت تتغطى بغطاء مهترئ، هو في الأصل أبيض، لكنه تحول إلي ألوان متعددة من كثرة الأصباغ والأوساخ التي نالت منه، والوسادة هي الأخرى لم تكن أفضل حالًا من الغطاء، فقد تناثرت عليها بقع ظاهرة وآثار دماء مستوطنة..ووسط كومة الأوساخ والأوجاع التي مزقت روحي رأيت وجهًا ملائكيًا ينام في وداعة، فاقتربت منها حتى أستطلع ملامحها جيدًا، وتأكد لي أنها في منتصف العقد الثالث أو ربما أقل..

جلست قرابة الساعتين أنتظر قدوم أحد حتى أنصرف، ولكن لم يأتِ أحد، إلا ممرضة أتت كي تنزع من يدها المحلول.. وحينما لمحتني الممرضة نظرت إلي بدهشة وهي تقول:

- حضرتك تعرفها؟!

فقلت بتلعثم:

- لا.. وإنما أرسلني أبي لزيارتها.

فرأيتها تهز رأسها وتمصمص بشفتيها، بينما تنظر نحوها بشفقة وعطف، ولم تكتفِ بذلك؛ بل راحت تهمهم وكأنها تحدث نفسها:

- لم يزرها أحدٌ منذ ما يقرب من عشرة أيام وهي على تلك الحالة، دموعٌ تنهمر من عينيها بينما لسانها صامت حتى أننا شككنا في أنها بكماء..

وبعد أن انصرفت الممرضة، لست أدري أي حالة تلك التي تملكتني! فلقد اقتربت منها وظللت بجوار السرير أمعن النظر في تلك الملامح البريئة، وتعجبت كيف لم يزرها أحد؟!

وهنا وجدتها تتململ في فراشها، ثم تفتح عينيها بتثاقل وتنظر نحوي في دهشة بدت ظاهرة.

ظلت علي تلك الحالة مدة ليست بالقصيرة.. كنت أنظر إليها بعينٍ حائرةٍ ولا أدري كيف أو بمَ أساعدها.. قمت من جلستي، اقتربت منها ولم يبقي بيني وبينها سوى أقل من خطوة واحدة، وقلت لها بصوتٍ خافت:

- أتريدين شيئًا يمكنني فعله؟

فلم تُجب، ونظرت إليّ والدهشة لا زالت تلازمها.. فلم أجد سوى معاودة السؤال بشكلٍ آخر:

- هل تريدين أن أنادي لك طبيبًا؟

فلم تأتِ بجديدٍ يُذكر، وأحسستُ أن تلك الفتاة ربما لم يعد لديها رغبة في الحياة، أو أنها تود أن تسارع بمفارقة الدنيا بعد أن أخبرها أحد الأطباء القاسية قلوبهم بحقيقة مرضها اللعين، فجعلها ترقد في انتظار الموت.. ويا له من إحساس شديد الغلظة والوطأة، ينشب مخالبه وأنيابه في روح من يتملك منه، فيرديه قتيلًا وإن بدا للناس حيًا..ودارت برأسي الوساوس ونسجت بدورها قصصًا وقصص.. ولم أفق من كل هذا إلا على صوت رنين هاتفي، كان أبي هو المتحدث يطمئن أني أنجزت المهمة على أتم وجه..

أنهيت حديثي مع أبي بشيئٍ من العجلة، وعدت إليها مسرعًا وانحنيت أمامها حتى كاد وجهي أن يصطدم بأذنها في محاولة جادة مني أن أُسمعها ما أقول، لكنها مجددًا لم تلتفت إلي ولم تبدِ دهشة أو تتغير لها ملامح.. بل ظلت شاخصة ببصرها نحوي وعيناها مثبتتان نحو الفراغ وجفونها لا تنغلق.. تركتها وخرجت أبحث عن طبيب أحدثه في أمرها، أو حتى ممرضة.. وأقف على طبيعة إصابتها، وهل فقدت النطق أم ماذا؟ واستطعت بعد عناء ومشقة أن أتحدث إلي الطبيب الذي قام باستقبالها ليلة وقوع الحادثة، وأخبرني أن الإصابة الخطيرة؛ كانت تكمن في ارتجاج مضاعف في المخ وجرح عميق بالجانب الأيمن،

ولولا عناية الله لانشطرت الكلى عن آخرها.. أما بخصوص النطق؛ فلا ندري إن كانت تتحدث قبل هذا أم أن فاجعة الحادث قد أصابتها بصدمة عصبية ممتدة الأثر.. سمعت منه ثم عُدت إليها مهرولًا، فوجدتها على حالتها من الصمت والشرود.. وحقيقةً أنني أحسست تجاهها بشفقة وعطف تملكا مني بصورة يصعب وصفها، ولم أدرِ ماذا أفعل كي أساعدها وأري الابتسامة على وجهها قبل خروجي..

عُدت إلي البيت فوجدت أبي في انتظاري يريد أن يطمئن على حالتها، فذكرت له ما كان من أمرها، وشرحتُ له ما ذكره لي الطبيب.. وكيف أنها لم تتحدث منذ دخلت المشفى.. وذكرت له أيضًا كيف أنه لم يزُرها أحدٌ حتى الآن.. فرمقني أبي بنظرة كلها شك وريبة ولسان حاله يقول: على ما يبدو أنك لم تذهب من الأساس.. ثم ما لبث أن أخرج هاتفه وما هي إلا ثوانٍ معدودة وسمعته يقول:

- آلوو..

- وعليكم السلام..

- لقد عاد احمد منذ دقائق من عند آمال وأخبرني أنه لا يوجد أحد عندها، وانتظر طويلًا حتي يطمئن من أحدكم على حالتها ولم يجد وها هو عاد لتوه.

- الحمد لله علي كل شيئ .

وضع أبي الهاتف جانبًا، ثم قال باقتضاب، ودون أن ينظر إليّ:

- يبدو أنك محق.. فلم يذهب شقيقها إليها اليوم، ووكَّل الأمر إلي ابنه الذي ربما كان هنا أو هناك وقت زيارتك.. ثم أنه أخبرني أن حالتها متأخرة وتسوء يوما بعد يوم، وأنه يلزمها إجراء عملية جراحية دقيقة لتنظيف الدم المتجلط تحت عظام الجمجمة، وإلا زاد حجمه وعظم أمره وضغط بشدة على جانب المخ الأيسر.. وهناك أمور أخرى لم يشأ ذكرها.. وكأن أيامها معدودات.

وقعت عليّ كلمات أبي كمطارقٍ ثقيلة تضربني في أنحاء متفرقة من جسدي.. ولم أنتظر لإكمال غدائي، وتعللت بانصراف نفسي عن الطعام ودخلت غرفتي شبه مقتول.. وعادت بي ذاكرتي إلي حيث صورة الملاك النائم وهي تتململ في فراشها وتنظر إليّ بتثاقل.. كانت رائعة الجمال رغم أنف الشحوب والمرض.. أنفٌ دقيق لا هو بالصغير ولا هو بالكبير، ووجنتان اختلط بياضهما بحمرة قانية، وعينان واسعتان كعيون ريمٍ شارد، وأهدابٌ طويلة، وحاجبان لم أرَ مثلهما في الروعة.. وأطلقت من داخلي زفرة كلها ألم ورحت في نوم عميق.

أنهيت عملي في اليوم التالي، لأجدني ودون إرادة مني أتوجه صوب المشفى، وكأن غيري هو الذي يتولى زمام أمري، وقد لاحت لي بارقة أمل في أمرٍ ربما يخفف عنها بعض الشيئ، إذ هداني تفكيري لإحضار أوراق وقلم، وما عليها سوى أن تكتب فقط ما تود قوله.. لست أدري أي قوة كامنة تلك التي دفعتني إليها دفعًا.. وبرغم أني علمت بالأمس مصيرها المحتوم ونهايتها التي تقترب منها ساعة بعد ساعة؛ إلا أنني لم ألتفت لكل هذا.. وتملكني شعور بأن الآمال العريضة يمكنها أن تنتشل آمال من محنتها.

قطعت الطريق المؤدي إلي المشفي مهرولًا، وما هي إلا دقائق معدودات وكنت أمامها وجها لوجه، كانت مستيقظة، وأحسست بإحساس ملهوف لا يكذب صاحبه؛ أنها قد انتشت من رؤيتي ثانية، وكأنما قد اعترتها سعادة حلت على حين غرة منها.. قلت لها بصوتٍ مسموع ولم أبتغِ إجابة.. بل تحدثت وكنت على يقين أنها تسمعني:

- آمال.. لا عليكِ.. لا تلقي بالًا لقول الأطباء ولا تهتمي لأمرهم، وإنما الآمال والآجال بأمر الله، ومن منا يدري متى نهايته أوكيف؟ ومن منا يدري تلك البقعة من الأرض التي ستشهد نهايته؟!

لقد أحضرت لك أوراقًا وقلما لكي تكتبي ما شئت إن كنتِ تجدين صعوبة في الحديث..

أنتهيت من كلماتي؛ فوجدت أساريرها تنفرج فجأة وتتهلل، وعيناها تلمع بلمعان يحمل كل سعادة، وحينها اقتربت منها ووضعت بجوارها الأوراق والقلم.. فمدت يدها بصعوبة وأمسكت بالقلم، فعاونتها على وضع الورقة أمامها.. فكتبت تلك الجملة:

لم يزُرني غيرك! ولم يعلم بعشقي للأوراق والأقلام غيرك!

ثم وضعت القلم واقتربت من يدي التي تمسك الورقة وقبلتها بشفتين باردتين، والدموع تتساقط من عينيها على بقية الورقة الخالي من الحروف.

سحبت يدي برفق بعد أن انتابتني قشعريرة سرت في بدني سريان النار في الهشيم، وحاولت جاهدًا أن تبدو انفعالاتي وملامحي؛ ملامح مشاركة ومؤازرة، لاملامح شفقة وعطف، وأمسكت بيدها من جديد ووضعتها على الورقة البيضاء.. وكأني كنت أستحثها كي تكتب وتخبرني بكل ما يخفيه هذا الجسد الصامت.. وأحسست بسعادة غامرة حينما وجدت فكرتي تؤتي ثمارها، ورأيتها تكتب جملة أخري أعمق وأشد أثرًا.. جعلتني أرتاب في أنها ليست كمن يمسك القلم، لمجرد أن يخط كلمات.. بل هي من هؤلاء الذين ينسجون من حروفه بساتين ورود فواحة أحيانًا، وأحيانًا أخري يجعلون الحروف تئن وجعًا وتصرخ ألمًا، ومن ذا الذي يستطيع فعل هذا إلا الشعراء والأدباء! ومن منحهم الله أحاسيس تثير الوجدان.

جلست معها؛ فنسيت المكان والزمان، بل نسيت أنني عليَّ العودة إلي البيت لإنهاء بعض الأمور العالقة، ونسيت أيضًا تلك العلة المريرة وذاك المرض الذي يستفحل بداخل ذلك الجسد المنهك الذي يتلبسه روح ملاك في ابهي صورة.. ولم أعُد إلي نفسي إلا مع صوت آذان المغرب؛ فودعتها وأردت الانصراف، فوجدتها تهز الورقة بعنف، وتمسك القلم بشيئٍ من العجلة والتسرع حتى خطَّت تلك الجملة:

- أعلم أنه يتوجب عليك الرحيل الآن.. ولكن لا تغب عنا.. وإلا فالشمس محجوبة عن سماءنا.. والروح مفارقة للجسد.

يا الله.. ما هذا الذي يحدث لنا فجأة من مجرد حروف متراصة! أي زلزالٍ هذا الذي وقع بروحي وفاق كل معدلات ريختر الحسابية؟!

قرأت الجملة وقلت لها بصوت خافت وكأنه يخرج من داخلي خائفًا مرتعبًا:

- بكل تأكيد سأعود في الغد

لم أدرِ ماذا حل بي حقيقةً.. كل الأحداث التي مرت بي منذ ذهبت إلى المشفى؛ تعود إلي عقلي مرورًا بروحي وخواطري، فلا يستبين سوى أمرواحد، ولكني كنت أهرب منه هروب من داهمه أسد طليق على حين غرة.. وحاولت جاهدًا أن أبدو متماسكًا، وأن أعيد ترتيب مشاعري وأحاسيسي على الوجه الذي يرتضيه عقلي ويجيزه، فما هي سوى مريضة، لا أمل من شفائها -والأعمار بيد الله- ولكن لا يجوز لي أن أخلط الأمور ببعضها، وإلا كنت أول من يسارع بالقضاء عليها.. وحينما وصلت إلي هذا الحد من التفكير والتروي، وجدتني منجذبًا إليها رغم كل شيئ!.

في اليوم التالي وكالعادة؛ أنهيت عملي وعدوت مسرعًا قاصدًا المشفى التي باتت أحب الأماكن إلي قلبي، وصارت رائحة البنج والأدوية هي مسكي وعنبري، وأصبحت آنات الموجوعين وآهات الثكلى ودموع المرافقين كأبيات شعر ناعمة أو موسيقى متناغمة.. وصلت إلي الممر الضيق الذي يفضي بي إلى حيث حجرتها، وهناك صادفت إحدى الممرضات التي ما أن رأتني حتى قالت:

ماذا فعلت بها؟ وما هي أدويتك التي حولتها من جثة هامدة إلى فتاة تستقبل الحياة؟ أيمكن لقلمٍ وبضعة أوراق أن يفعلوا ما عجز عنه الطب..

أم تُراك ساحرًا ونحن لا ندري! ولكن حتى السحر هو الآخر فمآله خراب وعذاب، ونحن نرى عكس ذلك!

استمعت إليها بابتسامة عريضة، ثم تعللت بالعجلة من أمري وانصرفت مهرولًا نحو آمال.. وما أن فتحت الباب حتى وجدتها تجلس في سريرها وتستند إلى وسادة خلف ظهرها وتمسك بالقلم وتكتب.. وما أن رأتني حتي ألقت بالأقلام والأوراق ونظرت إليّ نظرة عاشق أضناه البعد وفجعه الفراق، وها هو يعود لحبيبه، وبرغم أني علي دراية تامة بتلك النظرات وما تخبىء، إلا أني حاولت أن أظهر لها أني لم أعيها.. وكنت اهرب بعيني بعيدًا، خشية أن تلتقي بعينيها فيفُتضح أمري.

صارت الأيام بعد ذلك على هذا النمط الذي قربني منها قربًا لا يوصف، وكنت دائمًا أتساءل: أين هؤلاء الأهل الذين يزورونها؟ ولمَ لم أصادف أحدهم حتى الآن؟ أم تراهم قد استيأسوا من أمرها، وينتظرون كل يوم خبر موتها فيهرولون لاستلام جثتها وربما حتى لا يهرولون! وهممت بأن أكتب للفتاة ما في نفسي تجاه أهلها وجحودهم، ولكني تراجعت في اللحظة الأخيرة، إذ حدثتني نفسي بأنه ربما يسوؤها ذلك، فأضيف إلى جراحها جُرحًا جديدا.. وأضمرت في نفسي بأن أُخبر أبي بما كان من أهلها من غلظة وجحود..

في المساء أثناء تناولي العشاء بصحبة أبي، وبينما أحاول أن أخبره بما كان من أهل الفتاة؛ وجدته يشير إليّ بالصمت حتى يرد على هاتفه، ووجدته يقول وقد تغير لون وجهه:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. اللهم ثبت قلوبكم.. وليرحمها الله رحمة واسعة.. سأكون عندكم بعد دقائق.

تساقطت من يدي بقايا الطعام وانخلع قلبي خلف أضلعي، وشعرت بجسدي ينتفض وتسري فيه قشعريرة وكأنها سكرات موت أتت بغتة.. حاولت أن أتكلم.. أن أصرخ.. فلم يعنِّي لساني علي ذلك.. أما عيناي.. فوجدت بهما دمعتان كبيرتان تهمان بالسقوط، وحاولت جاهدًا منعهما حتى أقف على حقيقة الخبر، وحينها التفت إليّ أبي قائلًا:

- آمال.. تعيش انت.

حينها وجدت دموعي تنساب كالسيل حتي أن أبي تعجب من أمري فلم أكن أنا الذي تنساب دموعه في أشد المصائب ألمًا.. حتي أنه همَّ بسؤالي ولكن الموقف لم يسعفه.

انطلقنا كفارسين في سباق، وما هي إلا دقائق وكنا أمام المشفى.. قفزت من العربة تاركًا أبي خلفي.. كل ما كان يشغل تفكيري حينذاك أن ألقي عليها النظرة الأخيرة.. نظرة الوداع التي ليس بعدها نظرات، وأن أجلب معي كل الأوراق التي بثت فيها خواطرها، وتلك القصص التي كتبتها بقلمها الساحر الآسر.. كنت أعدو في طرقات المشفى ودروبها كلصٍّ يحاول الفرار ويصطدم بكل من يقابله، اصطدام لا يخشى معه الموت نفسه.. حتى وصلت إلى غرفتها، وقفت هنيهة ألتقط أنفاسي ثم تخيلت أني سأفتح الباب للمرة الأولى فلا أجد ساحرتي.. وبالفعل أمسكت يدي مقبض الباب، وحينما انفرج حتى آخره وجدت السرير خاليًا منها، فاقتربت ورفعت الوسادة؛ فوجدت كومة كبيرة من الأوراق

والأقلام، فرفعت الأوراق إلى صدري ووجهي اشتم فيها عبيرها بينما وجدتني أبكي بصوت مسموع.. وبعد دقائق هدأت من روع نفسي، وراحت عيني تقرأ الورقة التي بدت مختلفة عن غيرها.. كانت تعلو الأوراق ومطوية بعناية وكأنها كانت معدة لتُعطَى لشخصٍ ما، وفتحتها وقرأت الأتي..

- أنا لست بكماء كما يظن البعض، كل ما هنالك تلك الصدمة العصبية التي انتابتني حينما أصر أبي على زواجي من ابن أخيه.. فسارعت بالهروب خشية أن يحدث هذا فآثرت أن أموت مرة على أن أموت آلاف المرات مع رجلٍ لا تربطني به سوى ورقة في سجل الأحوال المدنية..

بالمناسبة أنا مترجمة وروائية مبتدئة، صدر لي روايتان.. "لست حبيبي"، و"ما زلت انتظر"..

وهنا لم أصدق نفسي.. إذ وجدتني أسترجع ذاكرتي وأصيح.. "آمال صلاح".. ثم أكملت القراءة وعرفت أنها نُقلت إلي المشفى جراء حادث، وهنا سمعت أبي يصيح بأعلى صوته:

- أحمد..أحمد..

فذهبت إليه مسرعًا، بينما الأوراق بين أحضاني أضغط عليهما بذراعيَّ خشية أن تتفلت ورقة واحدة، ولما رآني أبي قال بلهجة جادة صارمة غير عابئ بتلك الأوراق التي أحتضنها:

- أحمد.. لقد أخبرني شقيق آمال أنهم قد دفنوها منذ ساعة، بعد أن قاموا بإنهاء كآفة الإجراءات وقد اتصلوا بنا في وقت متأخر.. وقد عنفته علي هذا .

وحينما انتهي أبي من كلماته؛ كنت كمن فارقته الحياة.. ولكنها ردت فجأة حينما لمحت طيفًا من بعيد يتهادي بينما يستند إلى ذات الرداء الأبيض.. تلك الملامح أعرفها.. وتلك الابتسامة أحفظها عن ظهر قلب، ولما رأتني وجدتها تهرول إليّ مسرعة ثم تفتح ذراعيها وتغوص في أحضاني وهي ترددد:

- أحمد.. أنا أتحدث! أنا أنطق!.. لكم كنت أتمني أن يكون أول نطقي هو حروف اسمك.

عرفت بعدها ان آمال التي رحلت قريبة أبي كانت في العنبر المجاور وأن آمال صلاح الكاتبة-حبيبة القلب والروح– دخلت إلى هذا العنبر الموحش لأنه لم يكن هناك أحدًا برفقتها، ولم يكن لديها من الوساطة والمحسوبية ما يجعلها تنزل بعنبر العقلاء.. ورُبَّ صدفة تقودك إلى حيث قدرك.. ورُبَّ صدفة تقودك نحو حبك..

بقلم / أشرف غازي